تفسير كتاب مقدّس

تأمّل ميلادي في إنجيل لوقا (2: 1-13)

للأب ابراهيم سعد

2013/12/10

باسم الآب والابن والرّوح القدس، الإله الواحد، آمين.

اليوم نتأمّل معاً في حدث ننتظرُه جميعنا وهو ميلاد الربِّ يسوع. وقد اعتدنا أن نتحدّث عن هذا الحدث مراراً، وحتى ولو أعدْنا قراءة وتفسير بعض الأمور، فهذا مستحَّب لأنه يساعد في توْعِيَتنا وتنبيهنا أكثر لمعاني العيد، علّه يُعطينا دفعاً جديداً، وقوّة جديدة، لنُدرك حقيقة معنى "الولادة" أولا، ومن ثم معنى "ما بعد الولادة".

حُدّد عيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول في وقت متأخر بعد 300 عام من مجيء الربّ، أي في القرن الرابع. قبل ذلك، كان هناك عيد الظهور الإلهي في السادس من كانون الثاني، وقد اعتاد الناس أن يعيّدوا فيه للولادة والظهور الإلهي في آن واحد.

وعليْنا أن نفهم أن هذه التواريخ ليستْ التواريخ الحقيقيّة للأحداث، إنما قد اختيرت اختياراً لأسباب معيّنة. فبمحاكمة عقلية بسيطة، نُدرك أن لا أحد يمشي قرب النهر في السادس من كانون الثاني، ذروة فصل الشتاء والبرد. وأن الرعاة لا يرعوْن أغنامهم في البريّة إلاّ إن كان هناك عشب، والعشب يَظهر في الأرض بين آذار وتشرين الأول، وليس في كانون الأول. إذا لا علاقة بين ميلاد المسيح الحقيقيّ وهذا التاريخ، والدليل أن الكنيسة في القِدم لم تعتِد أن تعيّد لميلاد الربّ يسوع. ولكن لماذا؟

كانت فكرة الميلاد في القدم مرتبطة بالملوك والأباطرة والأعياد الوثنيّة، وجرتْ العادة أن تقام أعياد للملك لتُخبر عن طول عمره، حتى الروزنامة السنويّة كانت مرتبطة بالملك وبسنوات حكمه. لذلك لم ترد الكنيسة في البداية أن تدخل في هذه الأمور، لكيلا تتقاطع مع الوثنية في هذا الموضوع.

إلى أن تم تعيّين الظهور الإلهي في السادس من كانون الثاني، وكان لاختيار هذا التاريخ أسباب معينة. فالكنيسة عملها التربية، وهي تربي رعاياها على الإحساس بأهمية تكريس حياتهم بكلّ تفاصيلها لتنسجم مع الربّ وليس ساعات معيّنة فقط، والآباء في الكنيسة حاولوا ألا يفعلوا ما يؤدي إلى حدوث انفصام بين الحياة اليوميّة والإيمان — وهو ما وقعنا فيه اليوم، إذ نتكلم عن الإيمان ولا نطبقه بأفعالنا – والكنيسة همها أن نكون على انسجام بين الإيمان والحياة اليومية.

وفي تلك الأيام، كان هناك الكثير من الأعياد الوثنية. والمسيحيّون الذين آمنوا هم بالأصل وثنيون، وفكرة الأعياد رافقتهم وترسّخت في ذاكرتهم، وأحد هذه الأعياد كان في ليلة الخامس من كانون الثاني سنويا، إذ ساد اعتقاد أن الإله أوزريس كان ينزل في نهر النيل ليلاً ليقدّس الماء، وكانت تقام الاحتفالات التي سمح بعض المسيحيّون لأنفسهم أن يشاركوا فيها مع الوثنيّين، ولكي تطّهر الكنيسة عقولهم وتعمّدها، أعلنت لهم أن من يقدّس الماء ليس إلهاً وثنياً، بل هو من نزل في المياه واعتمد فيها، هو الربّ يسوع المسيح، وعينت عيد الظهور الإلهي في الموعد نفسه.

وبعد فترة، رأت الكنيسة أن هناك عيدا ثانياً في الخامس والعشرين من كانون الأول وهو "عيد الشمس"، وقد اختارت الشعوب الوثنية أن تعيّد لإله الشمس في هذا اليوم لأنه بحسب علم الفلك، يزداد طول النهار بضع ثوان في كلّ يوم اعتبارًا من هذا التاريخ، أي يكبر دور الشمس، وطبعا يرافق هذا العيد فرح واحتفالات وسكرٌ، ولم يرَ بعض المسيحيّين مشكلة في الجلوس على موائد الوثنيين في هذا اليوم والاحتفال معهم، ولكي تمنعهم الكنيسة من المساومة على العبادة، أعلنت لهم أن الشمس الحقيقيّة والنّور الحقيقيّ هو يسوع المسيح، وبالتالي حدّدت هذا التاريخ عيداً لولادة النّور الحقيقي، ولادة الربّ يسوع المسيح. وهنا حدث الفصل بين عيدَيْ الظهور الإلهي والميلاد. وقبل هذا الفصل، أرادت الكنيسة أن تكشف أن الربّ قد وُلد بالجسد من مريم العذراء، وبإعلان إلهي عن هويته عندما قال الربّ: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، فالغاية من العيد المشترك كانت الحديث عن المسيح الإلهي والبشري في آن.

ونحن اليوم بعد ألفي عام، ندرك عظمة الحكمة والخبرة بتصرفات الإنسان التي تحلى بها الآباء القدماء ليتّخذوا قرارا دقيقًا كهذا، إذ نرتكب نحن اليوم الأخطاء نفسها التي ارتكبها أسلافنا المسيحيّون منذ ألفي عام، والتي أدت بالآباء إلى اتخاذ تلك التدابير وقتها. فنحن الآن نحيّي العادات والطقوس الوثنية ذاتها، ولكن نضع عليها إشارة الصّليب! فالزينة والبهجة أمر مستحَّب، وهو تعبير عن الفرح الداخلي الذي ينعكس إلى الخارج، إلا أن التطرّف في هذه الأمور هو الخطير. لأننا لا نعود نفرح إلا بما نقوم به نحن، من زينة وبهرجة، وننسى ما يقوم به المسيح. ويصبح يسوع ضيفاً على العيد بدل أن يكون صاحبه. حتى المحزون منّا الذي يمتنع عن وضع الزينة والمشاركة في الاحتفالات يتطرّف في حزنه، ولا يعيّد لميلاد الربّ، ولا يعي أنه إن كان هناك ما يزيل الحزن من القلوب، فهو الوعي لقصة الميلاد التي حدثت من أجله. إذا، فالتطرّف في الحالتين ينمّ عن جهل وعدم فهم، والحل هو أن نفهم المعاني الحقيقيّة لعيد الميلاد ونذّكر بعضنا بعضاً بها.

وإذا أردنا أن نفهم معاني عيد الميلاد، يجب أن ننطلق من فهم الولادة البشرية العادية أولا. فعندما يولد الإنسان، لا يُسأل عن رأيه، وهو بالولادة ينتقل تلقائيًا من حالة إلى أخرى لا تتشابهان أبدا. ففي الرّحم يتنفّس الإنسان ويأكل من أمه، أما في الخارج فعليه أن يتنفّس ويأكل وحده. فالولادة إذا هي تغيير حال من وضع إلى آخر، فلا يمكننا معاملة مولود وكأنه لا يزال في رحم أمه، لأنه سيموت. وعندما نتحدث عن "الميلاد"، علينا أولا أن نتحدّث عن فكرة الانتقال –انتقالنا نحن– من حالة إلى أخرى، وهذه حقيقة ميلاد الربّ. وهنا يبرز سؤال مهم؛ ما هي الحالة التي نريد أن نصبح عليها بعد أن يحدث لنا حدث الميلاد؟ هل سنبقى كما كنّا قبله؟ ولنجيب عن هذا السؤال علينا أن نتذّكر أنه داخل الرحم قبل الولادة يسود الظلام، أما بعدها فنرى النّور، وأننا في البطن قبل الولادة ننمو نموًا محدودًا، أما بعدها فيستمر نمونا حتى الموت؛ قبل الولادة ننمو لنولد، وبعدها ننمو لنموت. فالحالة تختلف تمامًا، فقبل أن نولَد، نكون في حالة استسلام تام، ولكن متى وُلدنا وحتى نموت نصبح في حالة تسليم للّذي وَلَدَنا من جديد. والكنيسة تتحدث عن المعمودية على أنها ولادة، ولذلك ترى أنه لا يجب التأخر في عماد المولود، لأنه قد ولد ولادة بشريّة ويجب أن يولد ولادة روحيّة إلهيّة أيضًا، وذلك لكي يفهم معنى الولادة، ولكي لا نحرمه من فرح الحياة تحت جانح ربّه. وإن رأى البعض منا أنه علينا انتظار الطفل ليكبر ويفهم دينه قبل العماد، فيجب أن نفكر أننا كما لم نستشره عند ولادته البشرية، كذلك لا يجب أن نستشيره عند ولادته الروحيّة، ففي الولادتَين نلد الطفل ونعلّمه ليكبر. ما معنى أن يعيّد الإنسان لميلاد الربّ يسوع؟ فهو يعيش المخاض قبل أن تحدث الولادة، إذ يتنبّه ليقظات روحيّة كان غافلا عنها طوال العام قبل فترة العيد، وعندما يستيقظ هذه الانتباه يحيا الإنسان في صراع سببه أسئلة كثيرة حول كيفيّة التخلّص من الأحقاد والخصومات والحالة الرثة التي كان يعيش فيها قبل "الميلاد"، لينتقل معه إلى حالة جديدة، وهذا ما يدعى بالمخاض الميلادي، الذي لا يحدث بسبب خطايانا نحن وحسب، بل بسبب أخطاء غيرنا في حقّنا أيضا وفي كيفيّة مسامحتهم، وهو أمر صعب جدا لأن العيد يمرّ على الكثير من الناس دون أن تتغير حالتهم. إذا همّنا الحقيقي في الميلاد هو كيفيّة ولادة المولود الجديد – الذي هو نحن أنفسنا – بشكل يتأقلّم فيه مع الحالة الجديدة، مع النّور الحقيقيّ، يسوع المسيح.

وعند قراءتنا لقصة الميلاد في الإنجيل، سواء عند لوقا أو متى، لا يمكننا الخروج من هذه الذهنية. بمعنى أننا لا يمكن أن نقرأ أحداثها بدون أن نشعر أننا جزء من هذه الأحداث ولسنا مجرد قرّاء أو متفرّجين، وإلّا فسنكون في مشكلة. وعلى سبيل المثال، يقول لوقا الإنجيلي في بداية روايته لحدث الميلاد: **"وفي تلك الأيام صدر أمرٌ عن القيصر أوغسطس بإحصاء جميع المسكونة"**، والإحصاء أي إجراء حساب لمعرفة التعداد السكاني، والهدف الأساسي منه هو جمع الضرائب، لكي لا يتهرّب أحدٌ من دفعها، أي هذا الإحصاء هو نوع من أنواع العبودية لأن أي قانون يخضع له الإنسان فيه عبودية. أما نحن فعندما نعيّد الميلاد، يجب أن ندرك في أي إحصاء سنسجّل اسمنا؛ أفي إحصاء الذين يدفعون الجزية؟ أم في إحصاء من يرثون الميراث؟ في الحقيقة أننا عندما نقرأ خبر الإحصاء في قصة الميلاد، علينا أن نفكّر أننا يجب أن نسجّل أسماءنا لنأخذ وليس

لندفع. ويتابع لوقا: **"وجرى هذا الإحصاء على عهد كيرينيوس حاكم سوريا فذهب جميع الناس ليكتتبوا كلّ واحد في مدينته، وصعد يوسف أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهوديّة إلى مدينة داود التي يقال لها بيت لحم"**، وهنا نجد أن لوقا لم يعطِ بيت لحم اسمها الحقيقيّ أولاً، بل أسماها بلقبها "مدينة داود"، وجعل من اسمها الحقيقيّ لقبًا لها "بيت لحم"، وهذا الأمر ليس عبثيًا، بل له هدف منه. **"لأنه كان من بيت داود وعشيرته، ليكتتب هو ومريم خطيبته"** وفي العادة يكتتب الرجل مع زوجته، ولكنَّ الكاتب استخدم لفظ "خطيبته" ملمّحاً إلى أنه لم تكن هناك أية علاقة زواج بينهما بالمعنى الحقيقيّ للزواج، وليس قصده من هذا الدفاع عن بتوليّة مريم، بل أهم من ذلك، وهو أنَّ أحداً لم يتدخل بولادة المسيح إلّا الله، لذلك كانت العذراء بتولا في وقتها، وبعدها أكملت حياتها بالبتوليّة لأن من تلد ابن الربّ ماذا ستحتاج غير ذلك؟ **"وكانت حاملًا، وبينما هما في بيت لحم حان وقت ولادتها، فولدت ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مِذودٍ لأنه لم يكن لهما موضع في المضافة. وكان في تلك الناحية رعاة"**؛ أي الربّ يسوع ولد، وقمِّط كما يُكفَّن الميت، ووضع في المكان الذي يوضع فيه علف الماشية، وبعدها مباشرة انتقل الإنجيليّ للحديث عن الرعاة، والرعاة في وقتها كانوا يُعتبرون فقراء، لأنهم لا يتممون الشريعة بسبب نمط حياتهم. **"يبيتون في البرية، يتناوبون السهر في الليل على رعيَّتهم"** وهنا يجب أن ننتبه إلى وجود ربط بين هذا النص والعهد القديم. فالله قد اختار "الراعي داود" وجعله ملكاً، وأسمى المدينة "مدينة داود"، وفشلت هذه الفكرة بسبب داود، فقرّر الله أن يبني بناء جديدًا، وولد يسوع المسيح، وبدل أن يكون الراعي هو الملك أتى الرعاة ليسبحوا له. أي عند لوقا، يصبح الملك يسوع راعياً، ولنتحقق من ذلك علينا أن نعود في إنجيل لوقا إلى قصة زكريا والد يوحنا المعمدان، الذي كان رئيس الكهنة –أي الراعي– وأصابه الخرس: **"فلم يستطع أن يكلمّهم... وكان يخاطبهم بالإشارة"** أي لم يعد قادرا على منح البركة، أما في آخر إنجيل لوقا فيصبح الربّ يسوع هو الكاهن والراعي: **"ثم خرج بهم إلى القرب من بيت عنيا ورفع يديه وباركهم وبينما هو يباركهم انفصل وصعد إلى السماء"**، ومن هنا ندرك أن كهنوت العهد القديم قد أصابه الخرس وانتهى، وبدأ كهنوت العهد الجديد مع يسوع المسيح، وأن الرعاية الملكيّة القديمة قد انتهت لأن التصرفات الخاطئة أفشلتها، وقرّر الله أن يكون هناك راعٍ جديد ووحيد هو يسوع، وكلّ الرعاة تسجد له وتسبح. وقد عرف عن الإنجيلي لوقا أنه كان نصير الفقراء في طرحه للإنجيل، لذلك نجد في قوله **"يتناوبون السّهر في الليل على رعيَّتهم"** تلميحاً إلى أن الرعاة الفقراء يسهرون على رعيّتهم، أما الملوك والمسؤولون الأغنياء فلا يسهرون عليها أبدًا.

"فحضّرهم ملاك الرب وأشرق مجد الربّ حولهم، فخافوا خوفًا شديدًا. فقال لهم الملاك لا تخافوا: ها إني أبشّركم بفرحٍ عظيمٍ يكون فرح الشعب كله، ولد لكم اليوم مخلّصٌ في مدينة داود وهو المسيح الربّ. إليكم هذه العلامة: ستجدون طفلا مقمّطا مضجعا في مذود. وانضم إلى الملاك فجأة جمهور الجند السماويين يسبّحون الله ويقولون: المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي ناسي المسرة، السلام أيضا"؛ أي عندما ظهر حضور الله ومجده خاف الرعاة خوفاً، وهي ردة فعل بشرية طبيعية على أي حدث إلهي، وعندما أبلغهم الملاك ببشارة ولادة المخلّص في مدينة داود، كانت هناك

إشارة إلى أن المخلّص لم يعد داود كما كانوا يظنون، بل هو طفلٌ مقمّطٌ ومضجعٌ في مذودِ ولدٍ في مدينة داود. فالبشرى في العهد القديم كانت أن داود سيعيد المملكة من جديد ويرجع بيت إسرائيل ويوحدها. ونحن عندما نقرأ حدث الميلاد علينا أن نشترك به، وكأنه قد وُلد لكلِ واحدٍ منّا مخلّص، وعلينا أن نحدّد فيما إذا كنا سنقبل هذا الطرح الذي مفاده أن هذا المولود هو مخلّصنا فعلا، أم لا. والخلاص هو بُغية الأسير، والإنسان المخطوف بطبعه يتمسّك بمخلّصه، وعندما يصل المخلّص إلى غرفته ليحرّره، ولا يخرج معه يكون راضيًا بوضعه الحالي، أي سعيدًا بأنه مخطوف، فهو إذا متواطئٌ في الأسر. ونحن عندما يمرّ المسيح المخلّص أمامنا في عيد الميلاد، ولا نتمسّك به لينتشلنا من وضعنا الحالي، ونختار البقاء فيه نكون إذًا سعداء به، أما إن كنّا فعلا نشعر بأننا في حال مزرية، وأسرى للخطيئة فسنخرج مع المسيح ليحرّرنا من دون أن نسأله شيئًا، أي ننتقل من حالة العبوديّة إلى حالة التحرّر وليس الحرية –لأننا محرّرون ولسنا أحراراً بحسب بولس الرسول – وعشق الحرية أمر زرعه الله فينا، مما يجعلنا لا نحتمل العبودية أبدا، فكيف بعبودية الخطيئة؟ والدليل على ذلك أن الرعاة الفقراء قد قبلوا البشرى. **"فلما انصرف الملائكة عنهم إلى السماء، قال الرعاة بعضهم لبعض: هلم بنا إلى بيت لحم لنرى الذي حدث، ذاك الذي أخبرنا به الربّ. وجاؤوا مسرعين، فوجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعًا في المذود، ولما رأوا ذلك جعلوا يخبرون بما قيل لهم في ذلك الطفل، فجميع الذين سمعوا الرعاة تعجبوا مما قالوا لهم وكانت مريم تحفظ جميع هذه الأمور وتتأملها في قلبها، ورجع الرعاة وهم يمجّدون الله ويسبّحونه على كلّ ما سمعوا ورأوا كما قيل لهم"**؛ أي عندما انصرف الملائكة، هرع الرعاة إلى بيت لحم ليروا ما أخبرهم به مجد الربّ، وتركوا خلفهم مواشيهم ومستقبلهم في البرية، لأنهم أدركوا أن هناك ما هو المستقبل الحقيقيّ. ووجدوا الطفل وأخبروا الكلّ بما قالته لهم الجند السماويّة، وعادوا يسبّحون الربّ، أي دخلوا رعاة وخرجوا رسلاً، وبقيت مريم تحفظ كل ما يحدث منذ ولادة يسوع وحتى الموت في قلبها. ونحن هكذا في الميلاد، ندخله رعاة فقراء بما نحن عليه من عوز بشري في هذه الدنيا، ونخرج منه مبشّرين ورسلاً.

هذه إذا صورة من صور الميلاد الذي نحن مقبِلون عليه، نحن قد قبلنا المسيح وآمنّا به وعرفنا أننا مقيّدون واهتدينا إلى مَن يخلّصنا وهو فرصتنا. العيد إذاً وكلّ عيد هو فرصة سانحة، و"وقت مقبول" لنصدّق أن الذي قرع باب سجننا هو المخلّص الحقيقيّ، فنخرج معه من حالة الظلمة والأسر إلى حالة النّور والتحرّر، ولا ننشغل عنه بالزينة والبهرجة والعادات. وليس من الخطأ أن نهدي بعضنا البعض في عيد الميلاد، لأن من لا يتعلّم أن يتلقى لا يتعلّم أن يعطي، فبالهدية نتعلم أن نعطي مَن نحب ومن ثم مَن لا نحب، وحتى مَن لا نعرفه، وهذا نتعلّمه من ميلاد الربّ، حين قدّمت السماء النجمة، وقدّمت الأرض المغارة، وقدّمت البشرية مريم، وقدم المجوس الهدايا، وقدمت الملائكة التسبيح، والإنسان هو الوحيد الذي لا يتوجّب عليه أن يقدّم بل أن يتقبّل هدية الربّ له. آمين.

ملاحظة: دوِّنت المحاضرة من قِبلنا بتصرف.